قيم النقد في الثقافة الإسلامية

د. حمدي عبد العال

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

مقدمـــــــة :

باسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد

فإني من الذين يؤمنون بأن إصلاح الأمة وتجديد ثقافتها وحضارتها لن يتم إلا بعودة اليقين العقلي والقلبي بقصور العقل ومحدوديته في المعرفة وانقياده لسلطان الوحي في التشريع والأخلاق وما وراء الطبيعة.

وإني كذلك من الذين يعتقدون أن انتكاس الأمة وانحطاطها، كان هو النتيجة الحتمية لضعف إيمانها بتلك السيادة للوحي في تلك المجالات، وانقلابها على هذا المنهج.

وإن كنت كذلك من الذين لا يميلون إلى الإطالة في التقديم أو التمهيد لما أكتب عنه، فإن شعوري بأهمية الموقف وخطورته يجعلني أغالب هذا الميل في نفسي، فأطيل قليلا في التقديم للبحث باقتباس من كلمة قالها الإمام ابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ، في تقديم كتابه «الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية»، لم أجد أنسب منها مقدمة لموضوعي وغرضي الذى أكتب عنه سنة ١٤١٠هـ، فمن ملاحظة الزمن والموضوع نجد وكأن الزمن لم يتقدم بنا خطوة واحدة، وكأن أبناء اليوم هم أبناء الأمس وأول

أمس إلى ما هنالك من الأيام والسنين. وتلك حالة لا أجد أبلغ منها دليلا على أهمية البحث عن «قيم النقد في الثقافة الإسلامية» وضرورتها في بناء الأمة وتقدمها.

يقول الإمام ابن قتيبة، بعد حمد الله والثناء عليه بالذى هو أهله: «.. ونعوذ بالله من نزغ الشيطان ومصائده، ولطيف خدعه ومكائده، فقد صدق على هذه الأمة ظنه، وأجلب عليهم بخيله ورجله، وقعد لهم رصدا بكل مرصد، ونصب لهم شركا بكل ريع، وطفق لغوايتهم بكل شبهة، فأصبح الناس إلا قليلا ممن عصم الله مفتونين، وفيما يوبقهم خائفين، وعن سبيل نجاته ناكبين، ولما وضعه الله عنهم متكلفين، وعما كلفهم معرضين، وإن دعوا أنفوا، وإن وعظوا هزأوا، وإن سئلوا تعسفوا، وإن سألوا أعنتوا، قد فرقوا الدين وصاروا شيعا، فهم يتنابزون بالألقاب، ويتسابون بالكفر، ويتعاضدون بالنحل، ويتناصرون على الهوى، وعاد الإسلام غريبا كما بدأ.

فماذا يعجب من سلة السيف، وشمول الخوف، ونقض الأموال والأنفس، وهل يتوقع بعد تزويدنا في الغواية إلا التزود في البلاء؟ حتى يحكم الله بما شاء بيننا، وهو خير الحاكمين.

وكان طالب العلم فيما مضى يسمع ليعلم، ويعلم ليعمل، ويتقفه في دين الله لينتفع وينفع، فقد صار طالب العلم الآن يسمع ليجمع، ويجمع ليذكر، ويحفظ ليغالب ويفخر، وكان المتناظرون في الفقه يتناظرون في الجليل من الواقع، والمستعمل من الواضح، وفيما يثوب الناس، فينفع الله به القائل والسامع، فقد صار أكثر التناظر فيما دق وخفى، وفيما لا يقع، وفيما قد انقرض: من حكم الكتابة وحكم اللعان ورجم المحصن، وصار الفرض فيه إخراج لطيفة، وغوصا على غريبة، وردا على متقدم، كأنه لا يعلم أنه إذا رد على الأول صوابا عند الله بتمويهه فقد تقلد المآثم عن العاملين به دهر الداهرين.

وهذا يطعن على ماضي من السلف وهو بريء، وبالابتداع في دين الله على آخر وهو يبتدع.

وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون في معادلة الصبر بالشكر، وفي تفضيل أحدهما على الآخر، وفي الوساوس والخطرات، ومجاهدة النفس، وقمع الهوى، فقد صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتولد، والطفرة والجزء، والعرض والجوهر. فهم دائبون يخبطون في العشوات، قد تشعبت بهم الطرق وقادهم الهوى بزمام الردى.

وكان آخر ما وقع من الاختلاف أمرا خاصا بأصحاب الحديث، الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين، وبالاتباع قاهرين، يداجون بكل بلد ولا يداجون، ويستتر منهم بالنحل ولا يستترون، ويصدعون بحقهم الناس ولا يستغشون، ولا يرتفع بالعلم إلا من رفعوا، ولا يتضع فيه إلا من وضعوا، ولا تسير الركبان إلا بذكر من ذكروا، إلى أن كادهم الشيطان بمسألة لم يجعلها الله تعالى أصلا في الدين ولا فرعا، في جهلها سعة، وفي العلم بها فضيلة، فنما شرها، وعظم شأنها، حتى فرقت جماعتهم، وشتتت كلمتهم ووهنت أمرهم، وأشمتت حاسديهم، وكفت عدوهم مؤنتهم بألسنتهم وعلى أيديهم، فهو دائب يضحك منهم ويستهزيء بهم، حين رأى بعضهم يكفر بعضا، وبعضهم يلعن بعضا، ورآهم مختلفين وهم كالمتفقين، ومتباينين وهم كالمجتمعين، ورأى نفسه قد صار لهم سلما بعد أن كان حربا، فتكفلت بمبلغ علمي ومقدار طاقتي مارجوت أن يقضي بعض الحق عني، لعل الله ينفع به، فإنه بما شاء نفع، وليس على من أراد الله بقوله أن يسأله الناس، بل عليه التبصير وعلى الله التيسير. ويوافق قولي هذا من الناس ثلاثة :

رجلا: منقادا سمع قوما يقولون، فقال كما يقولون. فهو لا يرعوي ولا يجرع، لأنه لم يعتقد الأمر بنظر فيرجع بنظر.

ورجلا: تطمع به عزة الرياسة وطاعة الإخوان وحب الشهرة، فليس يرد عزته ولا يثني عنانه إلا الذى خلقه إن شاء، لأن رجوعه إقراره بالغلط واعترافه بالجهل. وتأبى عليه الأنفة، وفي ذلك أيضا تشتت جمع، وانقاطع نظام، واختلاف إخوان عقدتهم له النحلة، والنفوس لا تطيب بذلك إلا من عصمه الله ونجاه.

ورجلاً: مسترشدا، يريد الله بعمله، لا تأخذه فيه لومة لائم، ولا تدخله من مفارق وحشة، ولا تلفته عن الحق أنفة، فإلى هذا بالقول قصدنا وإياه أردنا.[1].

وإذا كان النظر في التاريخ الإسلامي ينتهي إلى أن الحدث الذى غير مجرى هذا التاريخ، هو ذلك الانقلاب الذى أحدثه الجدل في العلاقة بين العقل والوحي، والذى بدأ بالغيبيات وانتهى بالتشريع والأخلاق، فإنه ولكي تعود الأمور إلى نصابها، يتحتم إحياء شعور المسلم بمسئوليته الأدبية والدينية والتزامه بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنشيط روح الانتماء نحو ثقافته وحضارته الإسلامية بوجهها الصحيح، وإيقاظ وعيه بالقيم التي بها تلك الحضارة والعوامل المضادة

(١) ٢٢٣ - ٢٢٥.

لحركة سيرها وازدهارها، ليس من منطلق معرفته بتاريخ تلك الحضارة وتراثها العظيم والتباهي به فحسب، وإنما من أجل إحياء هذا التاريخ، وبعث هذا التراث بعد ترشيحه من العوالق والشوائب، كحياة نعيشها، وسلوك نمارسه يوميا، وقوة ملموسة لها أثرها وتأثيرها العالمي.

وتقديرى أن حركة السير نحو هذا الهدف، إنما تبدأ بحركة نقدية علمية شاملة دائبة ودائمة، هدفها الكشف عن الأسس والغايات الحقيقية والجوهرية التي قامت بها وعليها ولها تلك الحضارة، ليس بغرض معرفي أو نظري فحسب، وإنما بغرض أن يقوم بناؤها من جديد على قواعده الصحيحة، على مثال العمل الذى قام به أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام في البيت المعمور، ولأجل أن تستأنف الأمة مهمتها التاريخية التي قدرها الله تعالى لها في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . .﴾ (آل عمران/ ١١٠)، ولكي تبلغ تلك الحركة النقدية غايتها في الهدم والبناء أو كما يعبر الصوفيون عنها بالتخلية والتحلية، فإن شرط تحقيق هذه الغاية أن تستند على القيم الذاتية للثقافة الإسلامية نفسها، وليس على قيم ثقافة أو حضارة أخرى، وليس هذا الشرط تعبيرا عن رفض أو موقف معين من الثقافات الأخرى، وإنما نعني به في الواقع التعبير عن رغبة صادقة في إثراء حركة النقد العلمي وتزويدها بقيم جديدة، بمعنى أننا في تناولنا لقضية قيم النقد في الثقافة الإسلامية إنما نتناول في الواقع قضية القيم الصحيحة والأسس التي ينبغي أن يقوم عليها النقد أيا كان موضوع هذا النقد. ويعني كذلك الصفات العلمية والخلقية، والمؤهلات اللازمة للناقد وهو يقوم بعمله في النقد والتقويم.

وإذا كنا نعتقد أن مما يميز تلك القيم الإسلامية عن غيرها، كونها كائنات حية وفاعلة يمتزج فيها الروح بالفكر، والعلم بالأخلاق، والنظر بالتطبيق، وهى لا تمارس على وجه فعال إلا على هذا النحو من الامتزاج والتكامل، إلا أننا حين نكتب عنها لا مفر أمامنا من عرضها في نقاط أو فقرات تحت عناوين توضيحية، وفي إطار منهج نحاول به الربط بين تلك النقاط والمحافظة على التناسق والتسلسل المنطقي بينها على قدر الإمكان وفي حدود ما نتصور أنه أفضل طريق لتحقيق الغاية من البحث، وعلى هذا فقد كان اجتهادي في عرض الموضوع على هذا النحو.

أولا : المرتكزات التي يجب أن يقوم عليها فكر الناقد المسلم وتضمنت العناوين الآتية :

١ ـ الوعي بالنقد كقيمة إسلامية كبرى.
٢ ـ الوعي بدور الدين في صنع التاريخ.
٣ ـ الوعي بحدود العقل وحاجته إلى الوحي في المعرفة واليقين.

ثانيا : منظومة القيم، وقد عرضتها بحسب تدرجها القيمي من الأصول إلى الفروع تحت العناوين الآتية :

ـ التوحيد كقاعدة لقيم النقد في الثقافة الإسلامية ويتفرع عنه :
١ ـ الحرية.
٢ ـ الإخلاص.
٣ ـ التجرد من التعصب للهوى الذاتي.
٤ ـ الإتقان وما يقتضيه من الأهلية والتخصص في دراسة موضوع النقد.
٥ ـ الشك العلمي وليس المذهبي.
٦ ـ الاهتمام بالأصول دون الفصول.
٧ ـ الأمانة العلمية في عرض آراء الآخرين.
٨ ـ بلاغة التعبير في حسن العرض وملاحظة من يوجه إليهم الخطاب بالنقد.

ثم ختمت البحث بتلخيص مركز لغايات البحث والأصول الأولية التي ترتد إليها كل مسائله.

والله أسأل الهداية والتوفيق، ، ،

الوعي بدور النقد كقيمة إسلامية

غالبا ما يكون اختلاف النظر مرده اختلاف وضع الناظر للمسألة، فمن يمشي على قدميه يرى من يمشي على رأسه معكوسا، ومن يمشي على رأسه يرى من يمشي على قدميه معكوسا، وذلك النوع من اختلاف النظر وإن كان يعبر عن حال سيئة انتهت إليها أمور الأمة، إلا أنه بالنقد الموضوعي القائم على الود والرحمة والتعاون على البر والتقوى وليس على الإثم والعدوان يرجى تصحيح الأوضاع والنظر، وتوحيد المباديء والغايات مرة أخرى، وتلك مهمة النقد الذي افتقدناه في القول والعمل، والذى بدون الرجوع إليه وإحيائه يخشى أن تتعود الأمة ذلك الوضع المنكوس، وتركن إليه، وترى كل من يمشي على قدميه غريبا خارجا عن دائرة البشر والواقع، وحينئذ تحين ساعة السقوط الحقيقي التي انتهت إليها كل الأمم التي أنبأنا الله بأخبارها، عظة وعبرة، والذى حذرنا القرآن من مصيرها التعس في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[٢].

من أجل هذا كانت الحاجة الملحة الحاح الحياة والوجود، في بعث روح النقد الموضوعي لتراثنا وتاريخنا وحاضرنا وقيمنا وأفكارنا ووسائلنا وغايتنا، للكشف عن أسباب هذا الخلل والاضطراب والانحطاط في جميع أحوالنا، والتمييز بين الأسباب والنتائج في هذا الوضع الذى صرنا إليه، ذلك التمييز الذي يتوقف عليه العلاج الصحيح للمسائل، فإن الخلط بين الأسباب والنتائج، فوق أنه خطأ منهجي وعلمي فادح، فإنه قد ضيع علينا وقتا طويلا وجهودا وطاقات وثروات طائلة في تشخيص العلة والعلاج، وكان سببا في تفاقم أمراض الأمة وترديها من سيء إلى أسوأ.

ومثال على هذا النوع من الخلط: ما يعلق به كثير من المثقفين والمفكرين ما نعانيه من تخلف في شتى المجالات على حركة الاستعمار الغربي أو الغزو الفكري والحضاري والثقافي من الغرب أوالشرق،إلى آخر ما هنالك. مع أن كل ذلك عند النظر الصحيح للأمور يعود إلى النتائج وليس إلى الأسباب، ومن العجب في أحوالنا حين نرى أن كل من يشير إلى الأسباب الحقيقية ويضع الأمور في نصابها يتهمه

---

(٢) الأعراف / ١٧٥.

أصحاب الأرائك الوثيرة من المتفلسفين والمنظرين، بالعمالة أو التخلف أو الجمود أو الرجعية، إلى آخر تلك القائمة المعهودة، ومن سوء الحال الذى وصلنا إليه أن صارت مقاليد الأمور والتوجيه بيد هؤلا المخلطين من أصحاب الأرائك، فما من خطة أو منهج وضعوه للإصلاح أو النهوض على هذا النحو المعكوس بين النتائج والأسباب، إلا وكان نصيبه الفشل، فلم يحقق نتائج تذكر لأنه بني على عوارض المرض وليس على أسبابه.

فعلينا إن كان قد بقي لنا وعي بالتاريخ والجغرافيا وحقائق الزمان والمكان والاجتماع والسياسة والأخلاق، وإن كانت قد بقيت لنا إرادة النهوض ورغبة في التقدم والحرية، أن نعيد الاهتمام بالنقد على أسس من قيمنا الإسلامية، واعتباره قيمة جوهرية لها دورها الرئيس في عملية بعث روح الأمة واستنفار طاقاتها للنهوض الأخلاقي والعلمي والعملي، وتبصير الأمة والعالم بقيمة ما يتضمنه الإسلام من قيم عظمى، إن في قيمتها الأخلاقية والعلمية والعملية، وإن في انسجام تلك القيم وترابطها وتوازنها واعتدالها، وليس يخفى على من يفهم الإسلام ومقاصده أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذى يمثل أساس المسئولية الاجتماعية في الإسلام، لا يعني في جوهره إلا حركة نقدية يتحمل مسئوليتها كل مسلم بمبلغ علمه وطاقته وفي حدود مسئوليته «ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[٣].

الوعي بدور الدين في صنع التاريخ

فالعقيدة الدينية هى الشيء الذى لا يفوقه شيء آخر في تشكيل وجدان الإنسان وعقله وإرادته ونظرته إلى نفسه وإلى الوجود من حوله، وكل النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية ترتد في النهاية إلى أصول عقدية.

والدين هو الذى يعين الجماعة على تحمل النكبات، ويمنحها الأمل والصمود، وهو الأمر الذى تعتصم به الأمم في محنها كما يعتصم به الأفراد، ولا يغرنكم ما يتبجح به الإنسان فردا أو جماعة بتحرره أو انفلاته من كل عقيدة أو دين، فذلك في مظهره ومعناه ما هو إلا نوع من تصور الطفل الآمن من الجوع والخوف

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اجتمع عليه الشيخان، كتاب الإمارة ـ باب فضيلة الإمام العادل ص ٤٧٨ ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الكويت ١٩٧٧م.

استغناءه عن أمه أو تلهيه عنها باللعب واللهو، ولكن ما أن يعضه الجوع ويدهمه الخوف حتى يلقي بنفسه في حجرها.

والمعتقدات لروح الإنسان مثل الطعام لجسده، فكما أنه لا يكفي في غريزة الجوع التي غايتها تحقيق الكمال الجسدى للإنسان: إشباعها على أي وجه اتفق، بل لا بد لتحقيق غايتها من إشباعها على وجه مخصوص، ونوع مخصوص من الأطعمة، أما إشباعها على أي وجه وأي قدر وبأي نوع، فإنه وإن سد غلتها وسكن ثائرتها وأشبع نهمها، إلا أنه لا يحقق الغاية من وجودها، وربما انتهى إلى عكس غايتها: من السقم، والمرض، والضعف، والاضمحلال. كذلك الشأن في فطرة التدين التي غايتها تحقيق الكمال المعنوي للإنسان والاجتماع الانساني على أكمل وجه، فإنه لا تتحقق تلك الغاية إلا بإشباعها بدين يكون صالحا في نفسه لتحقيق هذه الغاية[٤].

وإذا كانت المعتقدات تمثل دورا أساسيا في التاريخ على الدوام، فإن تقدم الأمم وتأخرها يكون بحسب قيمة المباديء التي تدين بها، ويتوقف مصير إحدى الأمم على المعتقدات التي تسيرها، وتنشأ التطورات الاجتماعية وقيام الدول وسقوطها وعظمتها وانحطاطها بمقدار ما في عقائدها من حقائق وأباطيل، وتاريخ الأمم خير شاهد على مقدار المصائب والنكبات التي يمكن أن تصاب به أمة من تطبيق مباديء زائفة أو تطبيق خاطيء لمباديء صحيحة.[٥].

ولكن إذا كان دور الدين في سير الأمم لا ينكر، فإن هذا الدور يتوقف أو يتناسب مع قوة التدين أو اليقين النفسي بمبادئه، وأي وهن أو ضعف في هذا التدين يقابله قدر مماثل ـ إن لم يكن أبعد مدى ـ في فعالية هذا الدور.

وليس بلازم بناء العقائد على اليقين العقلي بحقائقها حتى تكتسب تلك الخصائص من القوة والاستمرار والصمود، بل المدار في هذا على درجة اليقين القلبي أو النفسي، أو التدين الذى تتمتع به تلك العقائد في ضمائر أصحابها، وبدرجة هذا النوع من اليقين فقط تعطي العقائد أثرها العملي في وحدة السلوك والغاية والاستعداد للتضحية في سبيلها.

«وهذا هو السبب في أن التفكير المجرد لا يؤثر في الناس إلا قليلا، في حين أن

---

(٤) انظر للمؤلف: منهج السلف في العقيدة ص١٨ ـ دار القلم ـ الكويت طـ٢ سنة ١٩٨٦م.

(٥) انظر قصة الحضارة ٢/ ٢٥٥ ـ ول ديورانت ـ ترجمة محمد بدران ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر طـ٣ ١٩٦١م.

الدين استطاع دائما أن ينهض بالأفراد ويبدل الجماعات بقضها وقضيضها وينقلهم من حال إلى حال»[٦].

فالحقائق التي يقدمها العقل لا تجد لها رواجا أو قبولا، ولا تثمر إلا إذا غرست في تربة الإيمان، وحين تتحول من اليقين العقلي إلى اليقين النفسي بصحتها، فالروح البشرية كما يقول غوستاف لويون : «إن سهل عليها أن تستغني عن الحقائق فإنها لا تقدر أن تحيا بلا يقين، فاليقين معتقد، والحقيقة معرفة»[٧] وإنك مهما بحثت فلن تجد دينا أو كتابا اهتم بذكر الحقائق التاريخية والسنن فى تقدم الأمم وانحطاطها وقيام الحضارات واندثارها، مثل ما اهتم الإسلام وكتابه المجيد، وما حفل به من قصص الأولين والآخرين، وحصر أسباب شقائها بالنحل والأهواء البشرية، وأسباب سعادتها بالملل السماوية، ثم يلخص هذا كله في قانون يحكم تاريخ الإنسان كله منذ هبط إلى الأرض فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[٨]

الوعي بحدود العقل وحاجته إلى الوحي فى المعرفة واليقين

وفلاسفة الأديان وعلماء الكلام حين شغلوا أنفسهم وشغلوا الناس معهم بمعرفة حقائق الدين الغيبية، وأخرجوها من خزانة القلب ليطرحوها على طاولة الفكر، ومن دائرة اليقين النفسي إلى دائرة الجدل العقلي، لم يقدموا لنا حلولا يطمئن إليها العقل لكل ما أثاروه من مشاكل فحسب، وإنما أخطر ما جنوه أنهم أضعفوا بتدقيقاتهم ومجادلاتهم قوة التدين واليقين القلبي عند الخاصة والعامة من الناس، وبقيت المشاكل التي أثاروها دون حل حاسم حتى الآن.

والواقع أن سبب هذا الفشل يعود إلى فرط ثقتهم بقدر العقل وقدرته في المعرفة. وإلى نوع من اليقين الزائف بمعطيات العقل في موضوعات العلم والمعرفة،

(٦) تجديد الفكر الديني في الإسلام - ٦٥ - محمد إقبال - ترجمة عباس محمود العقاد.
(٧) حياة الحقائق /٨ - ترجمة عادل زعتر - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٤٩م.
(٨) طه/ ١٢٣ - ١٢٤.

مع أن العقل : «ليس مستقلا بجميع المطالب، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات»[٩] وهو تأويل قوله تعالى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١٠]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[١١]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[١٢]، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[١٣].

«ولا تظنن أن هذا الذى قلناه من قصور العقل الإنساني وكونه له حد يقف عنده، هو قول بحسب الشريعة وحدها، بل هو أمر قالته الفلاسفة وأدركته حق إدراكه من غير مراعاة مذهب ولا رأي، وهو أمر صحيح لا يشك فيه إلا من جهل ما قد تبرهن من الأمور»[١٤].

«فكل ما فعلته الفلسفة منذ نشأتها وحتى الآن، أنها غاصت في كم من المشاكل التي لم يطرأ عليها أي تغيير أساسي، وكل ما فعلته بالنسبة لتلك المشاكل تقديم حلول استبدالية لا تراكمية لهذه المشاكل»[١٥].

وإشكالية اليقين العقلي أو قصوره في المعرفة، لم تعد أمرا مسلما به عند جهابذة الفلسفة في مجال الغيبيات فحسب، وإنما أصبحت من الأمور التي تواجه الفكر الفلسفي في عالم الشهادة، خذ منه مثلا أظهره: وهو الشمس. فما هي الشمس؟

إنك ان أمعنت النظر في هذا السؤال ورجعت إلى خزانة العقل البشري من معلومات، فماذا تجد لتجيب عن هذا السؤال؟!

إنك لن تجد إن حالفك الحظ، وطال بك العمر والبحث، إلا معرفة ضئيلة ومحدودة، ليس عن حقيقتها وكنهها فقط، وإنما عن أحوالها وأعراضها من شكل أو

---

(٩) المنقذ من الضلال ص١١٦ ـ الإمام الغزالي ـ مكتبة الأنجلو المصرية طـ٢ القاهرة سنة ١٩٥٥م.

(١٠) الإسراء/ ٨٥.

(١١) طه/ ١١٠.

(١٢) يوسف/ ٧٦.

(١٣) طه/ ١١٤.

(١٤) دلالة الحائرين ص٧٣ ـ موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي ـ تحقيق حسين آتاي مطبعة جامعة أنقرة سنة ١٩٧٢م.

(١٥) نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان ص ـ فؤاد زكريا ـ دار النهضة

لون أو حرارة، وهلم جرا، وفي تلك الأحوال والصفات لن تجد معلومات تامة استقصائية في كل صفة على حدة، وإذا قيل لنا: إن هذه المعرفة ممتدة ومتنامية، فإننا على الأقل وحتى الآن لسنا على يقين من نهايتها وإلى أي شيء تنتهي بنا.

وفي كل موضوع للمعرفة لن يسعدنا الحظ بأكثر مما نلناه عن غيره من الموضوعات الأخرى، لأنه يظل دائما أن المعرفة به مرهونة بحدود العقل وإمكاناته وفي حدود تصور المدرك وإمكاناته الشخصية في المعرفة، لا في حدود المدرك أو موضوع المعرفة في ذاته، فالعيون والآذان ـ كما يقول هرقليطس ـ : «شهود سيئة للإنسان»[١٦]، وتظل ـ كما يقول برتراندرسل ـ : «جميع ميادين المعرفة تحف بها منطقة محيطة من المجهول»[١٧]، ومعها يبقى اليقين العقلي بحقائق الأمور والأشياء مشكلة الإنسان الكبرى في المعرفة التي استعصى عليه ـ حين يكتفي بعقله فقط ـ حلها حتى الآن.

وكل الشكاك المذهبيين والمنهجيين كان لديهم المسوّغ الكافي، النفسي أو العقلي، في عدم التسليم أو الريب في صلاحية مداركنا للشهادة على صدق مداركنا وعلى إمكان إدراك الشيء في ذاته. والقول أو الاعتقاد: بأن تلك المدارك تظل رهينة طبيعتها وهواها في المعرفة.

فلأنه ـ كما يقول جورجياس ـ : «لكي نعرف وجود الأشياء، يجب أن يكون بين تصوراتنا وبين الأشياء علاقة ضرورية هي علاقة المعلوم بالعلم، أي أن يكون الفكر مطابقا للوجود، وأن يوجد الوجود على ما نتصوره»[١٨].

وهذا ما لا نستطيع معرفته ما دمنا نتخذ من ذواتنا أو من إدراكاتنا مقياسا لنقد إدراكاتنا، وهذا بعينه هو المأزق الحقيقي في المعرفة الإنسانية، حيث لا يمكن منطقيا جعل وجود الشيء سببا لنفسه.

بل إن مما يعجز عنه الإنسان في ظل تطور الإمكانات المساعدة أو الاصطناعية لحواسنا: معرفة الحد المثالي أو الواقعي في معرفة تلك الحواس للمحسوسات : فأيهما أصدق تعبيرا عن المرئي في الواقع : عين ترى كل الألوان؟ أو عين ترى اثنين منها؟ أو بمعنى آخر: ماذا يعني ما نطللق عليه «عمى الألوان» بالنسبة للواقع؟ ثم ما نوع

(١٦) المنهج الجدلي عند هيجل/ ٦١ ـ إمام عبد الفتاح إمام ـ دار المعارف ـ ١٩٦٩م.
(١٧) حكمة الغرب طـ١/١٨ ـ برتراندرسل ـ ترجمة فؤاد زكريا ـ عالم المعرفة الكويت سنة ١٩٨٣م.
(١٨) الإشارات والتنبيهات ص١/٣٩ ـ ابن سينا ـ تحقيق سليمان دنيا ـ دار المعارف ١٩٧١م.

علاقة الكم والكيف والوضع والأين والمقدار والإضافة. الخ في إدراكاتنا بمدركاتنا؟ إنه لا مجال لليقين الجازم في هذه المسألة، وكما قال «لوك» : لو كانت لنا حواس تبلغ من الحدة ما يمكننا من إدراك الدقائق الصغيرة للأجسام، لبعثت فينا دون شك أفكارا مختلفة كل الاختلاف، إن حواسنا تمكننا من معرفة الأشياء وتميزها وتفحصها بحيث يتسنى لنا تطبيقها في استعمالاتنا، ولو تغيرت حواسنا وأصبحت أسرع وأحد لتغيرت مظاهر الأشياء ونظمها الخارجية في نظرنا تماما»[١٩].

ويظل السؤال قائما دون جواب شاف لعقولنا، ويزداد معه القلق وعدم الثقة والخوف في أنفسنا، وهو : ترى : أي الحالتين أصدق من الأخرى بالنسبة للواقع؟ وما هو ذلك الإدراك الذى يمكن أن : «يسمو عن أن يشك في أنه ذاتي غير موضوعي ابتدعه الكائن المدرك نفسه».[٢٠]

وهكذا يبقى اليقين قلقا حائرا بين الحقيقة في ذاتها وبين ذواتنا، لا يدري على أيهما يجد راحته واطمئنانه وأمنه، ويظل الفكر الإنساني، ما دام مستقلا بنفسه، أسير دور لا ينفك عنه، وهو : أي المجالين يؤخذ معيارا لصدق الآخر؟ : الفكر، أم الواقع؟.

ولكن إذا كان العقل قاصرا دون اليقين ويصعب أن يكون هو نفسه السبيل إلى صدق نفسه، فهل له من سبيل إلى اليقين؟

ما من سبيل أمام العقل إلا حين يوقن بعجزه وقصوره ومعرفته الصحيحة بقدره وقدرته، ويدرك ما أدركه الصديق رضى الله عنه : «إن إدراك العجز إدراك»[٢١].

فاكسونوفان من القرن الخامس قبل الميلاد حين يشهد بأنه يستحيل «على الإنسان أن يثبت الصدق في أمور اللاهوت»[٢٢]، إنما كان يعني أن الدين كما يقول هيجل ابن القرن التاسع عشر : «هو الذى يستطيع أن يقدم لنا مفتاحا لحل الغموض الذى يحيط بمشكلة الأضداد، أما الفلسفة فهي لا تستطيع أن تصل إلى هذا المستوى، لأن الروح لا الفكر هو الحياة»[٢٣]، وما انتهى إليه كبير النقاد

(١٩) البحث عن اليقين ص٢٤ ـ جون ديوي، دار إحياء الكتب العربية ـ أحمد فؤاد الأهواني سنة ١٩٦٠م.

(٢٠) تهافت الفلاسفة ـ الغزالي ـ تحقيق سليمان دنيا ـ ط٤ دار المعارف بمصر.

(٢١) الأربعين في أصول الدين/ ٦٨ ـ أبو حامد الغزالي ـ مكتبة الجندى القاهرة ١٩٦٥م.

(٢٢) تاريخ الفلسفة الغربية/ ٤٧ ـ برتراند رسل ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٧م.

(٢٣) المنهج الجدلي عند هيجل ص٤٧ ـ إمام عبد الفتاح إمام.

والفلاسفة في الفلسفة الحديثة «كانت» من أن : «أمهات العقائد التي هى وجود الله وبقاء النفس بعدالموت،والاختيار، وحرية الإرادة،لا يمكن إثباتها بالعقل المحض ولا نفيها به، لأنها لا تدخل ضمن دائرته، ولكنها تدخل ضمن دائرة الاعتقاد فحسب»[٢٤]، وهو نفس ما انتهى إليه الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس الذى يقول : «إن الأدلة العقلية غير كافية بحد ذاتها للبرهنة على وجود الله أو عدم وجوده»[٢٥].

وهذا الذى قرره الفلاسفة: إنما يعني أن كل تفسير للأشياء ينبغي له ـ حتى يأخذ مشروعيته وقبوله ـ أن يعتمد في اليقين به على معيار خارج نطاق الفلسفة والتفلسف، وأن يرتد كما ذهب الإمام الغزالي وغيره من أمثال (ديكارت)، (وكانت)، (وهيجل)، (وسبنوزا)، إلى نوع من الإيمان بقدرة فوق العقل والطبيعة، وهذا الإيمان ليس ضمانا للعقل للثقة في نفسه فحسب، وإنما هو الذى يعصم العقل من الشك في مدركاته[٢٦].

وإن كان لنا من عبرة في التاريخ الفلسفي للإنسان، فإنه سيظل ماثلا أمام تجاربنا أن كل تفسير لتلك المشاكل التي أثارها الفلاسفة والمتكلمون حول الأديان وحقائقها الغيبية، يظل يعتمد في قبوله واستقراره وآثاره، على اليقين النفسي الذى يجد ضمانه في الإيمان بمحدودية العقل وقصوره وعجزه، أمام قوة كاملة العلم والقدرة والإرادة، خالقة ومهيمنة على الطبيعة والوجود والإنسان، هذا الإيمان الذى ليس ضمانا لليقين القلبي فحسب، وإنما هو الضمان الوحيد للذهن في نفسه ومعارفه.

وكما قيل: فالأمم يقوم الدين إلى جانب مهدها، وتصحبها الفلسفة إلى قبرها[٢٧].

والتاريخ الديني للإنسان خير شاهد على تلك المقولة، نجد ذلك في تاريخ اليهودية والنصرانية، كما نجده في تاريخ الأمة الإسلامية.

---

(٢٤) الحياة الوجدانية ص٢٦٣ ـ محمد حب الله ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة سنة ١٩٤٨م.

(٢٥) العقل والدين ـ ترجمة محمد حب الله ـ عيسى الباب الحلبي ـ القاهرة ١٩٤٩م.

(٢٦) وفي ذلك مراجع كثيرة يصعب حصرها، منها على سبيل المثال : المنقذ من الضلال للغزالي ونقد العقل الخالص لكانت، ومقال على المنهج والتأملات في الفلسفة الأولى لديكارت.

(٢٧) قصة الحضارة : ١/٢ رول ديورانت.

فالنصرانية حين فقدت اليقين الروحي بحقائق الوحي فيها، بما أثاره المتكلمون حولها من مجادلات وسفسطات عقيمة، شغلت فكر أتباعها واستهلكت ذكاءهم وقدرتهم العملية، وأصبحت في كثير من الأحيان مزيجا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية، والأفلاطونية المصرية والرهبانية السلبية، اضمحلت في جنبها تعاليم المسيح البسيطة، وتلاشت كما تتلاشى قطرة في اليم، وعادت نسيجا خشبيا من معتقدات وتقاليد، لا تغذي الروح، ولا تمد العقل، ولا تشعل العاطفة، ولا تحل مشكلات الحياة، ولا تنير السبيل، بل تحولت في كثير من الأحيان إلى حروب دامية وقتل وتدمير، وتعذيب وإغارة، وانتهاب واغتيال، وحولت المدارس والبيوت والكنائس إلى معسكرات دينية متنافسة متصارعة، وانتهت بتعاقب العصور إلى ديانة وثنية[٢٨].

ولما أقبل المسلمون من فلاسفة ومتكلمين، على التراث اليوناني، كصدى للتوجيه العام للإسلام نحو حرية الفكر، واحترام العقل، ودعوته إلى النظر في الكون دون منطقة الغيب المقصورة على الوحي ـ ليس من منطلق اقتسام مناطق النفوذ بين الوحي والعقل، وإنما من منطلق قدرة العقل وإمكاناته ـ فإنهم كما هو شأن الإنسان منذ خرج من الجنة بنزعة الفضول في نفسه. لما دفعهم هذا الفضول الأحمق إلى التطلع إلى الغيب ليس في مرآةالإسلام ـوهو القرآن ـ وإنما في مرآة الفلسفة اليونانية، بددوا قوة الإبداع التي ولدتها فيهم عقيدتهم الموحاة في مباحث فلسفية وكلامية لا تثمن ولا تغني من جوع في دنياهم وآخرتهم، وتشاغلوا بها عن علوم ومناهج تسخر لهم قوى الطبيعة، ويسخرونها لمصلحة الإنسان، ويبسطوا بها سيادة الإسلام الروحية والمادية على العالمين، فكانٍ ما خلفوه من كتب في العلوم والفنون والآداب والتجارب العملية والعلمية ضئيلاً جدا بالقياس لما خلفوه وراءهم من جدليات عقيمة لا نفع فيها فحسب، بل إن ضررها لا يزال يعمل عمله في إضعاف الأمة وانحطاطها وإحباط عزيمتها، وتشتيت خطاها حتى الآن، وفتحوا بابا كان سببا في هلاك كل أمة صاحبة دين من الأمم، بما أخلفوا الله ما وعدوه، وبما أعرضوا عن نصح رسوله وتحذيره، وعن عبرة التاريخ : «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[٢٩] فحذوا حذو أسلافهم ومعاصريهم من المتكلمين في اليهودية والمسيحية، وضيعوا ـ كما ضيع هؤلاء ـ ذكاءهم وإبداعهم وحماسهم في تلك المجادلات التي لا حاصل لها ولا عمل تحتها، مع أن الله أغناهم عن تلك الظنون

(٢٨) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٣٨ ـ ٣٩ ـ القاهرة طـ١٠ سنة ١٩٧٧ دار الأنصار.

(٢٩) حديث شريف رواه الترمذي وابن ماجه (حسن صحيح).

والأوهام بما أوحى به من علم ومنهج في عالم الغيب والشهادة.

ولولا أن منَّ الله عليهم بما ميزهم به عن سائر الأمم من حفظ دينه ووحيه مسطورا حتى الآن كيوم نزل، لذهبت ريح الحضارة الإسلامية، ودرست معالمها وآثارها، ولمحيت صورتها من ذاكرة التاريخ.

تلك كلها حقائق يجب أن يربى عليها وعي الناقد المسلم ويقينه وأن تكون قاعدة انطلاق نظره إلى الأمور، حتى يعي تلك المفارقة العجيبة بين القيم كما نزل بها الوحي، وكما طبقها الرواد الأوائل من سلفنا الصالح، وبين ذلك الوضع المنكوس لأمة انسلخت من قيمها وتاريخها، فلا يدع لأحد أن يزعزع يقينه أو يشوش على صفاء بصيرته وبصره للأمور بما يذهب إليه القليل أو الكثير من الناس في رؤية الأمور على خلاف ذلك.

ولكن إذا كانت هذه هى المرتكزات التي يقوم عليها فكر الناقد، من حيث الوعي بدور المعتقدات والأديان في نهوض الأمم وانحطاطها، والوعي بحدود العقل وقدرته في المعرفة، وحاجة العقل إلى الوحي في الغيبيات والأصول وصنع القيم ومناهج تطبيقها، ودور النقد الموضوعي في الإصلاح والنهوض والتقدم، فعلينا الآن أن نتجه إلى قاعدة البناء القيمي في الإسلام.

التوحيد : وهو قاعدة قيم النقد في الثقافة الإسلامية

إذا عدنا إلى ثقافة أي أمة، نجدها ترتد إلى منظومة من القيم الدينية أو الروحية، استقرت وتخمرت في وجدانها وضميرها، وهى التي تشكل نظرة إنسانها إلى الأشياء، وتوجه سلوكه، وتحدد غايته في الحياة، ويتوقف رقي ثقافة أي أمة أو انحطاطها على قيمة قيمها، ومدى انسجامها وتناغمها، ووضوح واستقامة البناء القيمي في ضميرها ووعيها، ووضع كل قيمة في وضعها الصحيح من ذلك البناء، وأي خلل أو اختلال في ذلك الوضع يصيب كل البناء بالفوضى والاضطراب، ويعطل أو يضعف عملية التفاعل الصحيح بين تلك القيم، ويحد أو يبطل من أثرها وتأثيرها العملي في الحياة، وليست المسألة في هذا التفاعل أو الفعالية مرهونة بحجم القيمة وقدرها بالنسبة للقيم الأخرى، بل بوضعها الصحيح بين تلك القيم، فأي

ترس في الساعة ـ مهما قل شأنه ـ له أهميته وشأنه في دلالتها على الوقت، والإيمان ـ كما قال ﷺ ـ : «بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الايمان»[٣٠].

وإذا كانت الأمم تمتاز أو تتمايز بنوع ثقافتها أو أخلاقها أو حضارتها، فمرد ذلك في الواقع إلى نوع قيمها، وإذا كانت لكل أمة قيم تميزها، فإن الأمة الإسلامية في وضعها المثالي كما صنعته مواثيقها وإخلاص روادها الأوائل في تطبيق تلك المواثيق، إنما تميزت عن سائر الأمم بقيمة كبرى تعتبر قطب الرحى أو حجر الزاوية أو درة العقد في منظومة قيمها، والقيمة: النواة التي تفرعت عنها كل القيم الأخرى وأعطت ثمارها، تلك القيمة هى التوحيد الخالص لله تعالى، الذى يعني في مضمونه إسلام القلب والعقل والجوارح لله تعالى، فهو القاعدة الراسخة التي يقوم عليها بنيان الأمة المعنوي والمادي، وأساس يقينها النفسي والعقلي، وإخلاصها في القول والعمل، وحرية إرادتها مما عدا الله، وهو الأساس الوحيد في تطهير قلب إنسانها من الأهواء والميول الدنيا، وشحنه بقوة اليقين، ونور الحق، كمعيار لفكره وسلوكه ونظره في الأشياء.

كما أنه القيمة التي تعتبر وحدها السبب الكافي لقيام الحضارة الإسلامية ونهضتها وازدهارها، فلا شيء غير قيمة التوحيد، يمكن أن نفسر به الوحدة السياسية والاجتماعية، ووحدة المباديء والسلوك والغايات لتلك الأمة على نحو غير مسبوق، فلا سابقة في تاريخ الأمم يمكن أن تكون مثالا تقاس عليه هذه الأمة في ازدهارها المادي والمعنوي والفكري والأخلاقي والنفسي والروحي، ولا شيء لدى المؤرخين جميعا غير عقيدة التوحيد يمكن أن يفسروا به تلك المعجزة التاريخية التي صنعها الإسلام، ولا يمكن لأحد من المشتغلين بشئون البشر وسير الأمم أن ينكر بأي مقياس حقيقة أن الأمة التي أنشأها الإسلام كانت خير أمة أخرجت للناس، وأي جدل في تلك الحقيقة التي يشهد عليها العقل والتجربة والتاريخ والواقع، إنما هو خروج عن منهج العلم والموضوعية إلى منهج الجدل والسفسطة.

فالإسلام كما تمثله مواثيقه القائمة حتى الآن بين أيدينا وكما تمثله تجارب المتدينين به وما يشهد به التاريخ، بدأ وظل أنموذجا غريبا عن مقاييس البشر وموازينهم في قيام الأمم والجماعات وتطورها ومبادئها وغايتها، وما على أي منصف إلا أن يتدبر هذه القوة الروحية في آداب القرآن، ليلمس بنفسه تلك المعجزة الاجتماعية التي نهض بها أولئك الغفل الجفاة العراة من العرب، وقد كانوا بين داع

(٣٠) المرجع السابق/ كتاب الإيمان باب شعب الإيمان ص٨.

لصنم وراع لغنم، فما زالوا بالدنيا حتى جمعوا إليهم أطرفها : «وليس من دليل في التاريخ على أن الأرض شهدت من خلق الله جيلا اجتماعيا كذلك الجيل في صدر الإسلام، حين كان القرآن غضا طريا والفطرة الدينية سليمة مواتية والنفوس مستجيبة، على أنه جيل ناقض طباعه، وخالف عاداته، وخرج مما ألف وخلق على الكبر خلقا جديدا، ومع ذلك فإن الفلسفة كلها والتجارب جميعها والعلوم قاطبة، لم تنشيء جيلا من الناس، ولا جماعة مثل أصحاب رسول الله ﷺ، في علو النفس، وصفاء الطبع، ورقة الجانب، وبسط الجناح، ورجاحة اليقين، وتمكن الإيمان، إلى سلامة القلب، وانفساح الصدر، وانطواء الضمير على أطهر ما عسى أن يكون في الإنسان من طهارة الخلق، ثم العفة في مذاهب الفضيلة: من حسن العصمة، وشدة الأمانة، وإقامة العدل، والذلة للحق، وهلم . . . إلى أن تستوفي الباب كله»[٣١].

وليس أكثر من واقع المسلمين اليوم شاهد على تلك الحقيقة، فحين ضعف تدينهم أو يقينهم النفسي بالإسلام وقيمه ذوت الأرض من تحت أرجلهم، وانفلت زمام الحياة والتاريخ من أيديهم، وأصبحوا عالة عليه، بعد أن كانوا صناعا له، وذيولا للأمم، بعد أن كانوا سادتها وروادها.

فاذا كان التوحيد كمعيار وقيمة يعني اسلام النفس لله : « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »[٣٢]. فانه لما بدأ الوهن والضعف يصيب هذا النوع من الإسلام في قلب المسلم بزغ هوى النفس والمنفعة الدنيا، ليزاحم نور الحق والحقيقة والخير والجمال في قلبه وإرادته وبصره وبصيرته، ففقد توازنه واتزانه، وانقلب وانقلبت به كل شئون الأمة وأمورها رأسا على عقب، ولولا لطف الله وسابق فضله ومشيئته بحفظ كتابه لأصبحت هذه الأمة كالرميم، لا يذكر منها التاريخ إلا ما يذكر من عاد وثمود وإرم ذات العماد.

وهكذا فإنه إذا كان النقد يمثل الحركة الدافعة للأمة نحو الإتقان في العلم والعمل، فإن التوحيد يمثل روح تلك الحركة وقوتها، وهو الذى يمنح الناقد اليقين

---

(٣١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص١٠١ ـ ١٠٤ ـ مصطفى صادق الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى طـ٨ القاهرة سنة ١٩٦٥م.

(٣٢) الأنعام/ ١٦٢.

العقلي والنفسي بصحة معتقدة وخيرته وكماله، ويشكل قاعدة القيم التي على ضوئها تتجلى له الحقائق، ويضمن له تمييز الحق من الباطل، والخطأ من الصواب، والقبح من الجمال، وينير له سبل إبلاغ الإنسان سعادته وكماله.

وبه وحده تمتاز قيم النقد في الثقافة الإسلامية عن كل قيم النقد الأخرى بأنها كائنات حية فاعلة، يمتزج فيها الروح بالفكر، والعلم بالأخلاق، امتزاجا لا يتصور لها حياة أو تأثير بدونه.

ونحن وإن كنا لا نستطيع حين نمارس النقد تغليب أحدهما على الآخر، فإننا من حيث النظر يمكننا ترتيبها على النحو الآتي :

أولا : الحرية

الاستعباد والكبر والاستعلاء والقهر والظلم والاستغلال والاحتكار والعنصرية والتعصب.. إلى آخر ما شئت: مما يعانيه البشر من المحن والرذائل، يرتد فى النهاية إلى صورة واحدة وهى : إلغاء إرادة بإرادة مكافئة لها ومن جنسها، أي فرض الإنسان سيادته قهرا على أخيه الإنسان. وتلك هى مشكلة الإنسان في الحرية.

ولن يجد الإنسان مهما حاول واجتهد حلا حاسما لمشكلته فى الحرية، إلا فى التوحيد، لأنه إذا كان الإنسان ككل كائن حي، دائم السعي نحو كماله الخاص به، فإن كماله لا يتحقق إلا بكمال قواه : الإدراكية، والإرادية، والوجدانية. وكمال إدراكه يعني معرفة الحق، وكمال إرادته يعني عمل الحق وهو الخير، وكمال وجدانه يعني حب الحق والخير وهو الجمال.

ولما كان الله هو الحق المطلق، والخير المطلق، والجمال المطلق، فإن الإنسان حين يتجه بإرادته نحو إفراد الله بالعبادة والولاء والحب، فإنما يتجه فى الواقع نحو تحقيق كمال فكره وإرادته ووجدانه، أو كماله فى المعرفة والعمل والشعور، وهذا وحده هو المعنى الحقيقي والسامي للحرية كقيمة إنسانية.

من هنا: فإن الحرية ـ كقيمة من قيم الثقافة الإسلامية ـ لا تتم ولا تؤتي أكلها إلا من حيث ارتباطها بالتوحيد الذى هو قاعدتها وكمالها وغايتها، بل إنها ـ كقيمة إنسانية وكغاية ينشدها كل البشر ـ لتتناسب من حيث رسوخها وأثرها تناسبا طرديا مع عقيدة التوحيد، بمعنى: أنها تزداد اتساعا وشمولا وتأثيرا بمقدار قربها من

التوحيد، فهو القوة الدافعة لها نحو كمالها الذى يعني اختيار الحق والعدل والمساواة، واتقان العمل والرحمة والإحسان، والتواضع والعلم النافع، والعمل الصالح، إلى كل ما شئت مما يعنيه البشر من الفضائل والخيرات، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة، الذي خيره قومه بين المال والجاه والسلطان والسيادة البشرية، وبين سلطان الحق وسيادته، فكان اختياره : «والله لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر فى يساري، على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه ما تركته»(٣٣).

فالحرية بهذا المعنى، وكثمرة من ثمار التوحيد، تكون وحدها الأساس للنقد الموضوعي والقيمة الحاكمة للتقويم والنظر فى الأعمال والأقوال، كما أنها الضمان الوحيد للمستوى العلمي والخلقي الذي يجب أن يكون عليه الناقد وهو يمارس عمله فى التقويم، فإنه إذا كان كما يقول الإمام الغزالى : «سعادة كل شيء ولذته وراحته في وصوله إلى كماله الخاص به، فإن كمال الإنسان: هو إدراك الحقائق على ما هي عليه، والنفس بفطرتها متعطشة إليه وبالفطرة مستعدة له، وإنما يصرفها عنه اشتغالها بشهوات البدن وعوارضه، مهما استولت عليه، ومهما كسر الشهوة وقهرها وخلص عن رقها واستعبادها وأكب بالتفكير والنظر على مطالعة ملكوت السموات والأرض، بل على مطالعة نفسه وما خلق فيها من عجائب، فقد وصل إلى كماله الخاص، والوصول إلى ذلك هو السعادة، والعمل هو المعين عليه(٣٤).

واذا كانت الآداب : «تحتم على الفرد أن يكون أبدا مع الحق، لا مع الحالة التي تسمى حقا فى لسان من تنفعه، وباطلا فى لسان من تضره إذ الحق فى اعتبار ما كانت فيه مصلحة الإنسانية نفسها باعتبار النظام الذي يعمها، لا مصلحة جزء منها باعتبار النظام الذى يخصه، ومبدأ الإنسانية قائم على أن الله لم يخلق إلا صنفا واحدا من الناس، ولكن مبدأ كل أمة سياسية أنها هى ذلك الصنف الواحد»(٣٥) فإن الناقد المسلم تكون دائما إرادته مع الحق وليس مع السياسة، لأن الذي يصنعها ويربيها وينميها هى آداب القرآن الكريم، التي : (ترمي في جملتها إلى تأسيس الخلق الإنساني المحض، الذي لا يضعف معه الضعيف دون ما يجب له، ولا يقوى معه القوي فوق ما يجب له، والذي يجعل الأدب عقيدة لا فكرا، إذ تبعث عليه البواعث

(٣٣) سيرة النبي ﷺ جـ١ ص٢٧٨ ـ عبد الملك بن هشام ـ دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨١م..

(٣٤) ميزان العمل : ١٩٥ ـ ١٩٦ ـ الإمام الغزالي ـ مكتبة الجندي ـ القاهرة.

(٣٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص١٠١ ـ مصطفى صادق الرافعي ـ المكتبة التجارية الكبرى. طـ ٨ ـ القاهرة ١٩٦٥م.

من جانب الروح، ويجعل وازع كل امرىء في داخله، فيكون هو الحاكم والمحكوم، ويرى عين الله لا تنفك ناظرة إليه).[٣٦] وهذا هو معنى الإحسان الذي سأل عنه جبريل عليه السلام ﷺ فأجاب : (أن تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فإنه يراك)[٣٧]، وحين سئلت عائشة رضى الله عنها عن أخلاق الرسول قالت : «كان خلقه القرآن»[٣٨]، وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٣٩].

«وبالحري لا تجد هذا الترتيب إلا نسقا في وصف الآداب الإسلامية التي جعلت أهلها الأولين حين اتبعوها وأخذوا بها خير أمة في التاريخ بشهادة التاريخ نفسه.

وإنما أركان الفضيلة الاجتماعية الكبرى في ثلاث، كلها حرية واستقلال :

١ ـ استقلال الإرادة وقوتها، وهذا هو الذى يكون عنه «الأمربالمعروف»،لا يكون بغيره.

٢ ـ استقلال الرأي وحريته، ويكون منه «النهي عن المنكر»،ولا يمكن أن يكون بغيره.

٣ ـ استقلال النفس من أسر العادات والأوهام بالنظر والفكر في آيات الله، ولا يكون الإيمان إيمانا على الحقيقة بدونه، ثم هذا الإيمان هو الذى يسند الركنين المذكورين آنفا، ويشد أزرهما، ويقيم وزنها الاجتماعي، فيبعث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بثقة إلهية لا يعترضها شيء من عوارض الاجتماع التي تعتري الناس من ضعف الطباع البشرية: كالجبن والنفاق، والخلابة والمؤاربة، وإيثار العاجلة، ونحوها، فإن هذه الصفات لا تتفق مع صحة الإيمان بالله.

ومتى كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير قائمين على الإيمان بالله دخلا في الأهواء الإنسانية،فيعود أمر الإنسانية إلى النزاع الحيواني، فإن الحيوان في كل ما يسطو به، إنما يأمر بمعروف هو معروفه وحده، وينهى عن منكر هو منكر وحده»[٤٠].

تلك هي الحرية التي يكون النظر بها في الأقوال والأعمال في الله وبالله ولله.

---

(٣٦) السابق/ ١٠٣.
(٣٧) اللؤلؤ والمرجان ـ كتاب الإيمان ـ وباب الإيمان ص٢.
(٣٨) صحيح مسلم.
(٣٩) آل عمران/ ١١٠.
(٤٠) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص١١١.

ثانيا : الإخلاص :

والإخلاص ـ كقيمة من قيم الثقافة الإسلامية ـ هو نتيجة الحرية وثمرتها والتطبيق العملي لها، والذي يعني صدق الإرادة في اختيار الحق على ما سواه، وبهذا المعنى فإن عظماء الرجال من المصلحين والعلماء والنقاد والمفكرين : (يتصفون دائما بالإخلاص، وهم يتبعون الحقيقة حيثما تقودهم، إنهم لا يكفون أبدا عن محاولة استبدال رغباتهم الخاصة بالحقائق، كما أنهم لا يحاولون إخفاء هذه الحقائق عندما تثير لهم المتاعب، ذلك لأن على الشخص الذى يتلهف على تأمل الحقيقة أن يوطد دعائم السلام في نفسه)[٤١]، ولا طريق إلى تحقيق هذا السلام إلا بتحرير القلب من الخشوع والخشية لغير الله، وهو تأويل قوله تعالى : ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٤٢]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٤٣].

(ولكن لأن الإخلاص التام لازم للعلم والعمل، لذلك نجد عدم تأثير العلم والعلماء في الأمم المنتكسة الأخلاق أو الأمم السطحية)[٤٤].

ومن هنا كانت حاجتنا إلى النقد الذي يقوم على الإخلاص في الأصول والغايات، لتمهيد التربية المناسبة لأثمار العلم وعمل العلماء، ومن أهم عناصر هذه التهيئة: هي الآداب التي يراعيها الناقد في نقد العلماء، ليس بقصد تمجيد أشخاصهم، وإنما بقصد تمجيد العلم والعلماء كقيمة اجتماعية ومثل تحتذى، ولا يخفى على كل من يهتم بشؤون النشأ والشباب ومصير المجتمع، تأثير ما يعرض على الناس من شخوص: كنجوم وكواكب، في صنع قيمهم وسلوكهم وغاياتهم وتوجيه حركة المجتمع، ولعل في تلك الآداب التي يعرضها الإمام الغزالي، أنسب ما يتحلى به الناقد في هذا المجال.

يقول :

(أيها الطالب للعلوم، والناظر في التصانيف، والمستشرف على كلام الناس وكتب الحكمة : ليكن نظرك فيما تنتظر فيه بالله ولله وفي الله، لأنه إذا لم يكن نظرك

(٤١) الإنسان ذلك المجهول ص ١٦١ ـ اليكس كاريل ـ مؤسسة المعارف ـ بيروت.
(٤٢) الرعد/ ٢٨.
(٤٣) فاطر/
(٤٤) محاورات رينان ص١٣ / أرنست رينان، ترجمة / على أدهم ـ دار العصور للطبع والنشر، ١٩٢٩م.

به وكلك الى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره: من فهم، أو علم، أو حفظ، أو إمام متبوع، أو صحة ميز أو ما شاكل ذلك، وكذلك إذا لـم يكن نظرك له، فقد صار علمك لغيره، ونكصت على عقبيك، أو خسرت في الدارين صفقتك، وعاد كل هول عليك ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٤٥]، وكذلك إن لم يكن نظرك فيه، فقد أتيت معه غيره، ولاحظت بالحقيقة سواه، ورؤية غيره دونه تعمي القلوب، وتهتك الستر، وتحجب اللب.

وإذا نظرت في كلام أحد من الناس ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن يستغني عنه في الظاهر وله إليه كثير حاجة في الباطن، ولا تنتهي به حيث وقف به كلامه، فالمعاني أوسع من العبارات، والصدور أفسح من الكتب والمؤلفات وكثير علم مما لم يعبر عنه.

واطمع بنظر قلبك في كلامه إلى غاية ما يحتمل، فذلك يعرفك قدره، ويفتح باب مقصده، ولا تقطع له بصحة، ولا تحكم عليه بفساد، وليكن تحسين النظر عليك فيه، حتى يزول الإشكال عنك بما تتيقن من معانيه، وإذا رأيت حسنة أو سيئة فانشر الحسنة، واطلب المعاذير للسيئة، ولا تكن كالذبابة تنزل على أقذر ما تجده.

ولا تعجل على أحد بالتخطئة، ولا تبادر بالتجهيل، فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر به، فلكل عالم عورة، وله في بعض ما يأتي به احتجاج، وناهيك ما جرى بين ولي الله تعالى الخضر، وكليمه موسى، على نبينا وعليهما السلام.

وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن في الظاهر بمحال أو إضلال، فخذ ما ظهر لك علمه، ودع ما اعتاص عليك فهمه، وكل العلم فيه إلى الله عز وجل»[٤٦].

هذه هي روح الإخلاص التي يجب أن يتحلىٰ بها الناقد في النظر إلى العلماء والتي تجعل نظره في الأشياء نظرة أخلاقية نبيلة، ترى الحق وتعشق الخير والجمال.

ثالثا : التجرد من التعصب الذاتي :

والتجرد من الهوى الشخصي: هو الثمرة التي يجنيها الناقد من صدق إرادته

---

(٤٥) الكهف / ١١٠.

(٤٦) الإملاء في إشكالات الإحياء/ ١٢ + ١٣ ـ الغزالي ـ لجنة نشر الثقافة الإسلامية القاهرة سنة ١٣٥٦هـ.

وإخلاصه، أما التعصب فهو قيمة سلبية تتعارض منطقيا وأخلاقيا مع الإسلام.
منطقيا: من حيث تناقضه مع التوحيد، ووضع الذات موضع الند أمام الله، واستبدال الهوى الشخصي بالوحي، وإفراغ القيم التي تقوم على التوحيد من معناها وجدواها،
وأخلاقيا: من حيث قيامه على الظلم وهو أس الرذائل وأقبحها، فالمتعصب لا يخلو حاله من أمرين:
إما ظالم لنفسه، واما ظالم لغيره، ودائما بين رذيلتين: إما الكبر والاستعلاء بالباطل، وإما الذل والضعة والهوان.

ولا تجد في تاريخ البشر قوة غاشمة مدمرة، أو فتنة ماحقة أشعلت الحرب وأشاعت الدمار والخراب وسفك الدماء، أو كبر واستعلاء، وظلم وقهر للأفراد والجماعات والأمم، إلا وعلى التعصب كفل منه ونصيب فيه، وما عليك إلا أن تنظر أحوال هذا القرن وما وقع فيه من حروب ساخنة وباردة، عالمية أو اقليمية أو محلية، وما يزخر به من مشاكل وبائية، اجتماعية ونفسية وأخلاقية وسياسية واقتصادية، ومن جوع وخوف إلى غير ذلك من مشاكل انتهت بالإنسان إلى تلك المفارقة العجيبة المحزنة أو المضحكة ـ وشر البلية ما يضحك ـ من حيث قيام أمنه وسلامه، ليس على العدل والإنصاف، وإنما على الرعب، أو ما يحلو للمخادعين من الطغاة تسميته بالرعب أو الردع النووي، فإنك لا تجد شيئا من ذلك كله إلا ويقف وراءه لون من ألوان التعصب العرقي، أو العنصري، أو الجنسي، أو القومي، أو «الأيدلوجي»... الخ، ثم إذا نظرت في اللغة السياسية المعاصرة، وتأملت في بعض مصطلحاتها مثل: «الدول النامية»، «دول العالم الثالث»، «مناطق النفوذ»، «المجال الحيوي»، «الصراع الدولي»، «الصراع الأيدلوجي»، «الصراع الطبقي»... إلى غير ذلك من المصطلحات، فإنك واجد أنها انعكاس أو تعبير عن روح العصر في التعصب، والذي يمكن معه وصف هذا العصر بأنه: «عصر المشاكل والأضداد» ووصف إنسانه بأنه: هو هذا الذى يطفيء حرائقه بالبترول والبارود، وهو هذا الذى يحل مشاكله بالمشاكل، وإلا فتحت أي منهج أو وصف يمكن أن نضع طريقته في مخططاته وبرامجه في معالجة البطالة والكساد والتضخم بإثارة الفتن واشعال الحروب ونشر الغواية والفساد؟!

لكل هذا كان وصف القرآن للتعصب والسخرية كوصفه للكفر، بأنه فسق بل بئس الفسوق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ

ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٤٧] و : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[٤٨] و : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾[٤٩] أما حبه ونعمه وثوابه فهو : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٥٠]

ـ هؤلاء الذين يقيمون علاقاتهم وتعاملهم على العدل دون شرط أو تحفظ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾[٥١]، ﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ﴾[٥٢].

وعلى البر وحسن الجوار والسلام لمن سالم : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[٥٣] ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾[٥٤] ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ۚ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٥٥].

هذه هي أخلاق المسلم التي تحكم نظرته وسلوكه مع الناس على اختلاف ألوانهم ومشاربهم ومعتقداتهم، والتي تنطلق من قيم سامية متجردة من الهوى والتعصب، معيارها الحق والخير والعدل، سواء فيما يتصل بنفسه، أو ما يتصل بالآخرين، ليس على أساس فكره وعقله، ففكره وعقله ليس بأولى في القبول والرد من فكر وعقل الآخرين، وإنما بما هداه إليه ربه ورب العالمين، إلى الصراط المستقيم الذى لا يسوغ له حق التسلط أو المن، بل لله وحده السلطان والمن، فما عليه إلا البلاغ ولله الجزاء أما الإكراه فإنه : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾[٥٦] وأنه : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[٥٧] ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾[٥٨].

---

(٤٧) الحجرات/ ١١
(٤٨) لقمان/ ٨.
(٤٩) النحل/ ٢٣.
(٥٠) القصص/ ٨٣.
(٥١) المائدة/ ٨.
(٥٢) النساء/ ١٣٥.
(٥٣) الممتحنة/ ٨.
(٥٤) النساء/ ٩٠
(٥٥) النساء/ ٩٤.
(٥٦) البقرة/ ٢٥٦.
(٥٧) الغاشية/ ٢١.
(٥٨) آل عمران/ ٢٠.

والمسلم بهذا السلوك مع الغير يكون منطقيا وأخلاقيا مع دينه وعقيدته لأنه : ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[٥٩] و ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾[٦٠] و ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾[٦١]. فليس على المسلم، بعد بذل الجهد والاخلاص في معرفة الحق وبيانه والدعوة اليه أن يحمل أحدا عليه : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾[٦٢]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؟![٦٣] وانما : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٦٤].

وهكذا نرى التعصب من منظور إسلامي، حالة مرضية تعني قصورا في العلم والأخلاق، وحجابا يحجب الحق والخير والجمال، وتلك القيم هى غاية النقد الموضوعي في الإسلام، فإن تجرد الناقد وحياده التام وشعاره في البحث عنها يجب أن يكون : «معرفة الرجال بالحق، لا الحق بالرجال» وما قلب حال المسلمين وجمد حركة الفكر الديني والعلمي، إلا يوم أن أصبح النقد يقوم على قيم سلبية من الهوى والمصلحة الشخصية، ونصرة المذهب والرأي، وحب الغلبة، من غير اعتماد على علم أو معرفة أو تقوى، ويوم أن أصبح المعيار في القبول والرد، هو صاحب القول لا القول في ذاته. وإنه : (مهما نسبت الكلام إلى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه إن كان باطلا، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقا، فأبدا يعرفون الحق بالرجال، ولا يعرفون الرجال بالحق، وهو غاية الضلال)[٦٥]
وما عليك الآن إلا أن تعرض على متعصب مسألة معقولة جلية، فيسارع إلى قبولها،

---

(٥٩) الكهف/ ١٧.
(٦٠) القصص/ ٥٦.
(٦١) الاسراء/ ١٥.
(٦٢) فاطر/ ٨.
(٦٣) يونس/ ٩٩.
(٦٤) المائدة/ ١٠٥.
(٦٥) المنقذ من الضلال/ ١١٤ ـ الإمام الغزالي ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٥٥م.

فلو قلت له: إن هذا مذهب مخالفك نفر وامتنع عن قبوله، وانقلب مكذبا بعين ما صدق به، وليس هذا طبع العوام أو المقلدين للمذهب فقط، بل إن كثيرا من المتوسمين باسم العلم يضعون المتلقف بالتقليد أصلا، وينبذون بالشبهة والهوى كل ما يخالفه، وبالدليل كل ما يوافقه[٦٦]، ولقد عمت بلوى هذا النوع من التعصب منذ نشأة الفرق الإسلامية وحتى الآن جميع المنتسبين إليها من: متكلمين، ومتصوفين، ومتفلسفين، ومتفقهين، فكانوا لا يقبلون من الدين لا فقهاولا رواية إلا ما جاءت به طائفتهم، مع أن الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقا، رواية، ودراية، وفقها، من غير تعيين شخص أو طائفة غير الرسول ﷺ[٦٧].

وثالثة الأسافي: أن صار المذهب أو مقالة شيخ المذهب معيارا للكفر والإيمان والحق والباطل، مع أنه معلوم من فقه النصوص الدينية أنه: (ليس لأحد أن ينصب للأمة شخصا يدعو إلى طريقته ويوالي عليها ويعادي، غير كلام الله تعالى ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصا أو كلاما يفرقون به بين الأمة، يوالون على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون)[٦٨].

ولقد نشأ عن هذا النوع من التعصب القائم على أساس من العواطف الفاسدة، آفات أصابت الفكر الإسلامي بالعقم والتخلف والاضمحلال، وأدت إلى انتشار رذائل كثيرة بين العلماء والعوام على حد سواء، لأنه إذا كان النظر مبناه النزعات الذاتية، والأهواء الشخصية، دون ضابط من قانون عقلي أو شرعي، فإن نتيجته اللازمة: التعصب، والخلاف، والتناحر، وجمود الفكر على التقليد والمحاكاة، من غير مبالاة بالحق والصواب.

والتعصب فضلا عما ينشأ عنه من رذيلة الكبر والاستكبار والغيبة والرياء والنفاق والكذب والحسد وحب الغلبة والمباهاة بالباطل، فإن أعظم أخطاره: هو خطره على البحث العلمي والحقيقة، وعلى هدف الناقد نفسه في التعرف على الخطأ والصواب والحق والباطل، والحسن والقبح، في موضوع نقده، وهذا هو الفرق الجوهري بين النقد الموضوعي والنقد الذاتي أو المذهبي.

---

(٦٦) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد/ ٨٨ ـ الإمام الغزالي ـ مطبعة صبيح القاهرة.

(٦٧) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم/ ٨ ـ ابن تيمية ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ دار المعرفة للطباعة والنشر.

(٦٨) درء تعارض العقل والنقل/ جـ١/ ٢٧٢ ـ ابن تيمية ـ تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة دار الكتب ـ القاهرة ١٩٧١م.

فالأول: يتخذ الحق معيارا وغاية بصرف النظر عن ميوله الشخصية.
أما الثاني فإن تعصبه يغشي بصره وبصيرته عن رؤية الحقيقة، ويتحول إلى نوع من التشنج في الدفاع عن الهوى والمصلحة الشخصية، الذى ينتهي غالبا إلى التمكين لوجهة النظر المضادة وانتشارها.

فكم من صديق للإسلام جاهل ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إلى الكفار، فأنكر جميع علومهم، وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في كروية الأرض ودورانها، وقولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك في برهانه، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع، فازداد للمخالفين حبا وللإسلام بغضا[٦٩]. وكان هذا: (من آفات علماء السوء الذين يبالغون في التعصب والتعالي على غيرهم والنظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار، فينبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة بالمثل، وتتوافر بواعثهم على نصرة الباطل ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه)[٧٠].

وهكذا فإن التعصب ـ فضلا عما ينشأ عنه من الإحن والضغائن والأحقاد والاختلاف وتشتيت خطى الأمة ومقاصدها وتبديد طاقاتها في خطوط متعارضة ومتقاطعة ـ له خطره الجسيم على إرادة المخلصين في النهوض العلمي والأخلاقي والاجتماعي للأمة، وهو أكبر جناية على الحق والحقيقة، وتكريس للباطل والظلم والتخلف، فمن أول الواجبات في النقد أن يكون شعار الناقد في النظر والمعرفة:

«معرفة الرجال بالحق، اعرف الحق تعرف أهله» أما معرفة الحق بالرجال فإنه رذيلة عند الشرع والعقل والأخلاق.

رابعا: الإتقان في دراسة الموضوع:

واذا كان الولاء للحق والإخلاص والتجرد من الهوى الشخصي والمصلحة وعدم التعصب، هي الأسس أو القيم الأخلاقية للنقد الموضوعي، فإن دراسة موضوع النقد وتحليله تحليلا علميا هو القيمة العلمية، أو الشرط الضروري في النقد أو التقويم، والمسوّغ الوحيد لقبول نتائجه، والثقة بأحكامه، ولا يكفي في النقد أن

---

(٦٩) انظر: المنقذ من الضلال/ ١٠٢.
(٧٠) انظر: إحياء علوم الدين ١/ ٦٨ ـ الغزالي لجنة نشر الثقافة الإسلامية ـ القاهرة ١٣٥٢هـ.

يكون موهبة أو ملكة، بل لابد من صقل هذه الموهبة بالعلم والمعرفة، فمن لم يؤمن بأنك تعرف الحساب لا يمكنه أن يتعلم منك الحساب.

وإذا كان للنقد دوره الخطير في عملية الهدم والبناء على أسس سليمة، والتمييز بين الخطأ والصواب والحق والباطل والجمال والقبح، فإنه لا يتصور أن يشتغل به ويتصدى له إلا من كان عالما موهوبا بصيرا وخبيرا بأسس النقد ومناهجه وأهدافه وعلى مستوى رفيع في الثقافة والمعرفة والأخلاق، فلا يتصدى لنقد موضوع أو مذهب ما لم يكن قد بلغ الغاية في دراسته، دراسة متخصصة عميقة، تجاوز درجة أصحابه أو المتخصصين فيه، فإنه لا يقف على فساد أو صلاح فن أو صناعة، من لا يقف على منتهى علم أصحابهم فيها، حتى يساوي أعلمهم ثم يزيد عليه ويتجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع أربابه من غور وغائلة، والوقوف على فساد المذاهب: ـ كما يقول الغزالي ـ قبل الإحاطة بمداركها محال، ورد الشيء أو قبوله قبل فهمه والاطلاع على كنهه ومقاصده: رمي فى العمى والضلال[٧١].

إذ ذاك فقط يكون للناقد الحق الأدبي في النقد والتقويم والحكم على آراء الآخرين وعملهم بالرد أو القبول، ويكون جديرا بالثقة العلمية من حيث النتائج التي ينتهي إليها نقده وتقويمه، فعلم الناقد وإحاطته بموضوع نقده في أصوله ومقاصده وجذوره وفروعه، هو حيثيات الثقة به والقاعدة الشرعية التي تستند إليها أحكامه : (فلو أن ثلاثة أنفس ادعو عندك أنهم يحفظون القرآن، فقلت ما برهانكم؟
فقال أحدهم : برهاني أنه نص على الكسائي أستاذ المقرئين، اذ نص على أستاذى، واستاذى نص على.

وقال الثاني : برهاني أن أقلب العصا حية، وقلب العصا.

وقال الثالث : برهاني أني أقرأ جميع القرآن بين يديك من غير مصحف. فأى هذه البراهين أوضح عندك. وقلبك بأيها تصديقا؟[٧٢].

من أجل هذا كان النقد الموضوعي بشروطه وقيمه ـ وليس النقد الذى نراه الآن ـ : هو شأن من شؤون خاصة الخاصة من العلماء : (إذ يقل على بسيط الأرض

---

(٧١) انظر في ذلك للإمام الغزالي : المنقذ من الضلال ص١٤، ٩٤، ٩٥، ومقاصد الفلاسفة ص٤١ ـ تحقيق سليمان دنيا ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١.
(٧٢) القسطاس المستقيم/ ٥٨ ـ الإمام الغزالي ـ مكتبة الجندي ـ القاهرة.

من يستقل في قواعد العقائد بإقامة الحجة والبرهان بحيث يرقيها من حضيض الظن والحسبان إلى يفاع القطع والاستيقان، فإنه الخطب الجسيم، والأمر العظيم الذى لا تستقل بأعبائه بضاعة الفقهاء، ولا يضطلع بأركانه إلا من تخصص بالمعضلة الذباء، ولما نجم في أصول الدين من الأهواء واختلط بمسالك الأوائل من الفلاسفة والحكماء)[٧٣].

ولن يستغرب هذا المستوى العلمي والخلقي للناقد كشرط ضروري في النقد، إلا من لا يقدر دور النقد وخطره في تقدم الأمم وانحطاطها، أو من يجهل قيمة النقد وقيمه في الإسلام : (فإن قليلين من الناس يعكفون على طلب الحقيقة، بل إن كثيرين يحبون أن يشتهروا بين الناس بأنهم من أهل الأذهان الجبارة، فتراهم ولا هم لهم إلا المكابرة في مناقضة أبين الحقائق وأجلاها)[٧٤]، وكان أكثر ما يخشاه ديكارت على فلسفته: هم هؤلاء الأدعياء، حتى إنه ليتوسل إليهم أن لا يقرؤوها، وكان يقول عن كتابه «التأملات في الفلسفة الأولى» : (إني لا أنصح بقراءته بتاتا لأحد من الناس إلا لمن يريدون أن يتأملوا معي تأملا جديا، ويستطيعون أن يجردوا نفوسهم من مخالطة الحواس، وأن يخلصوها تخليصا تاما من جميع ضروب الظنون والأحكام السابقة، وأنا أعلم علم اليقين أن هؤلاء قليل جدا)[٧٥].

فالإتقان والجدية والاهتمام والتدقيق والتمحيص والتوثيق وغير ذلك من لوازم العمل النقدي، إنما تعود كلها إلى قيمة تعتبر قطب الرحى فى قيم السلوك العام والخاص للمسلم، وقيمة من القيم المعيارية فى الإسلام للتفاضل بين الناس، يعبر الإسلام عنها تارة بالتقوى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٧٦] وتارة بالإحسان فيما رواه الشيخان عن النبي ﷺ وهو : «أن تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فإنه يراك» والتقوى والإحسان: مضمونها التجويد، والإجادة، والإتقان فى القول والعمل.

---

(٧٣) فضائح الباطنية/ ٤ ـ الغزالي ـ تحقيق عبد الرحمن بدوي ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة سنة ١٩٦٤م.

(٧٤) التأملات في الفلسفة الأولى/٤١، ديكارت ـ ترجمة عثمان أمين ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٥٢م.

(٧٥) السابق/ ٤٨ ـ ٤٩.

(٧٦) الحجرات/ ١٣.

خامسا : الشك العلمي :

لأن الكذب كما يقول ابن خلدون : (متطرق للخبر بطبيعته، وله أسباب تقتضيه، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنقد، حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها الميل لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غشاء على عين بصيرتها على الانتقاء والتمحيص)[٧٧].

ولأن لكل علم منهجه المناسب، فإن الشك هو منهج الناقد في الوصول إلى الحقائق، فالناقد البصير هو الذى يبدأ بنقد كل الأصول التي ترجع إليها كل معرفة وتبنى عليها كل الأفكار، ولا يعنيه كثيرا تقويض أي بناء مهما كان شامخا إذا كان هذا هو السبيل لاكتشاف ما تحته من حقائق، فكثيرهم شراح الآراء والمقلدون، أما أصحاب الآراء ورواد المعرفة فهم القلة القليلة الذين على أكتافهم وحدهم يقوم صرح الإنسانية وتنتقل بهم من حال إلى حال.

ومن هنا كانت القاعدة التي قررها وأجمع عليها علماء السلف ولا زالت صالحة على الدوام: أن كل إنسان ما عدا صاحب الشرع، يؤخذ منه ويرد، ورأيه قابل للخطأ والصواب، ومن جعل الحق وقفا على واحد من النظار بعينه فهو من الكفر والتناقض أقرب.

أما الكفر: فلأنه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل الذى لا يثبت الإيمان إلا بموافقته، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته.

وأما التناقض: فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر وألا ترى في نظرك إلا ما رأيته حجة.[٧٨].

فالتحرر من أوثان التقليد والتعصب لفكرة مسبقة، أو مما يسميه «بيكون» : أوهام الجنس والمسرح والكهف والسوق والمسرح[٧٩]، هو الذى يطلق حرية الناقد فى النظر إلى موضوع نقده، وقد انعتق من أغلال التقليد والأفكار والأحكام المسبقة التى وقفت ولا زالت تقف فى قيدها آراء ومذاهب وفلسفات، وغشيت عيون كثيرة عن رؤية الحق.

---

(٧٧) مقدمة ابن خلدون/ ٢٥٩ ـ تحقيق ـ علي عبد الواحد وافي طـ٢ لجنة البيان العربي القاهرة سنة ١٩٦٥.

(٧٨) انظر: القصور العوالي/ ١٤٨ ـ مجموعة للغزالي ـ مكتبة الجندي ـ القاهرة.

(٧٩) انظر : قصة الفلسفة الحديثة ١/٦٢ ـ ٦٦ ـ أحمد أمين، وزكى نجيب محمود ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة سنة ١٩٥٩م.

والشك الذى نعنيه هنا ـ والذى نعتبره قيمة من قيم الثقافة الاسلامية ـ ليس هو ذلك الشك المذهبي، فإن هذا النوع من الشك لا يخرج عن دائرة التعصب المذموم ولا يعني فى نظرنا إلا نوعاً من المرض النفسي، والذى لا يمكن وصفه بأنه حالة فكرية أو عمل من أعمال العقل السليم، لأنه إذا كان الشك المنهجي يبدأ باليقين وينتهي به، فإن ذلك الشك يبدأ بالشك وينتهي به.

بمعنى أن الذى يشك بغرض الوصول إلى الحق أو بناء الحقائق والحكم الموضوعي على الأشياء، إنما يبدأ سيره من مسلمة يؤمن بها: وهى قصور العقل البشري والإدراك الانساني عن الإحاطة بكل شيء، وأن العقل مهما بلغ فله حدود فى المعرفة.

ومسلمة أخرى: وهى أن كل معطيات العقل وأحكامه من حيث ذاتها فيها إمكان الصواب والخطأ، وهو حين يبدأ من هذه المسلمات، فإن غايته من النقد تكون العمل على نقل تلك المعطيات والأحكام من دائرة الإمكان الواسعة إلى ثلاث دوائر رئيسية: دائرة اليقين، ودائرة الرجحان، ودائرة الإهمال والنسيان، وتلك عملية خطيرة وخطرة وشاقة، ولكنها فى الوقت نفسه جليلة ونبيلة، خطرة من حيث الإمكانات والأدوات، وجليلة من حيث النتائج والغايات.

أما الشك المذهبى: فهو حالة سلبية، لا ينتمي إلى شيء من ذلك، ولا يعدو أن يكون تعبيراً عن حالة من العجز واليأس، وهروباً من التكاليف الإنسانية والأدبية، أو حنيناً إلى الأصول العدمية والترابية للإنسان، فمن منطلق عجزه ويأسه يتجه إلى التشكيك في قيمة العقل والمعرفة والقيم والغايات الإنسانية، كوسيلة يغطي أو يسوِّغ عجزه عن النهوض والتقدم، أو انفلاته من كل القيم والضوابط الإنسانية التي تمنع تقهقره إلى عالم العدم والغرائز، وليس أبلغ من كلام الله تعالى في وصف هذا الموقف البائس: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾[٨٠]،

(٨٠) الأعراف/ ١٧٥ ـ ١٧٧.

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾[٨١].

فالشك المذهبي ما هو إلا عجز علمي وأخلاقي، وحالة إنسان عجز أن يكون إنسانا.

أما الشك الذى نعنيه للناقد فهو الشك الذى ينطلق في النظر إلى الموضوع من قاعدة: أن كل قول وعمل يحتمل لذاته الصواب والخطأ والصدق والكذب، وهو ما يقي الناقد آفة التقليد، ويعصمه من الانزلاق وراء الهوى، فيدور مع البرهان والدليل حيث دار، لا يقبل شيئا على أنه حق ما لم يعرف يقينا أنه كذلك، ويتجنب مبلغ جهده التهور والسبق إلى الحكم على الأشياء قبل النظر الصحيح فيها. ولا يدخل في أحكامه وموازينه إلا ما يتمثل أمام عقله في جلاء وتميز أنه حق، بحيث لا يكون لديه مجال لوضعه موضع الشك، فلا يبيح لنفسه رد رأي ما أو قبوله، ما لم تتوافر الأدلة الكافية على صدقه أو كذبه، وعندما لا تتوافر هذه الأدلة يعلق الحكم.

والشك بهذا المعنى ليس أساسا للنقد فحسب، وإنما هو روح البحث العلمي ومعيار التقدم في كل العلوم: (فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال)[٨٢].

سادسا: التركيز على الأصول دون الفصول:

فالنقد ليس من مهمته وأغراضه عرض تفاصيل المشاكل والمسائل في الموضوع، وإنما مهمته الأولى تقويم الحلول لتلك المشاكل والأسس التي تقوم عليها واختبارها بمعيار الخطأ والصواب، لإبراز أصلحها في بناء المسائل، وأفضلها في حل المشكلات، فليس من مهمة النقد الهدم فقط، وإنما إقامة البناء على أساس متين، والناقد حين يحلل موضوع نقده، إنما يحلله بهدف الوصول إلى الأسس أو المباديء التي يقوم عليها، والأصول المنطقية والأخلاقية الكامنة وراءه.

والسؤال الذى يلقيه على نفسه ويسعى للإجابة عنه: ما هي الأسباب والأسس التي تعود إليها تلك المسائل والأحكام في هذا العمل الذي أمامي؟ وكيف أستطيع الكشف عن ما فيها من زيف وحقائق؟

---

(٨١) المدثر/ ٤٩ ـ ٥٣.

(٨٢) ميزان العمل/ ٤٩ ـ الغزالي ـ مكتبة الجندي ـ القاهرة.

أما الجدل في الأمور الفرعية والتفصيلية أو الاشتغال بالمسائل الشكلية والمماحكات اللفظية، فإنه يحول النقد إلى مباراة لفظية ومناظرات سطحية فارغة دون تحصيل نتائج يعتد بها في قيمتها العلمية، وما علينا إلا النظر في كثير مما نقل إلينا من تراث في الفقه واللغة والتصوف والكلام والتاريخ وغيرها من العلوم النظرية لندرك مقدار ما أهدر من جهد وأوقات، ضاعت هباء في مناقشات جدلية، وخلافات لفظية، وانشغال بالفصول دون الأصول ـ على حد قول ابن المقفع في كتابه «الأدب الكبير»[٨٣] ـ ضيعت علينا كثيرا من الحقائق العلمية والتاريخية : (فليس الخرق في الاستقصاء في موضع تركه بأقل من الحمق في تركه بموضع وجوبه) كما يقول الغزالي رحمه الله[٨٤].

سابعا : الأمانة العلمية والوضوح في عرض آراء الآخرين :

وهذه من أولى الثمار التي نجنيها من دراسة الناقد لموضوع نقده، من حيث التعريف به، وإحداث نوع من الثقافة حول موضوعاته، وإثارة اهتمام العلماء والجمهور بما يطرحه من مشاكل وحلول لتلك المشاكل، وبهذا الأسلوب في العرض يتفاضل النقاد في أثرهم وتأثيرهم في تنمية الحياة الثقافية والعلمية، وإثراء وجدان الأمة وازدهارها.

ودقة الناقد ووضوحه في عرض آراء الآخرين بأبلغ وأوضح من عرض أصحابهم لها: هو المعيار لمدى إحاطته وتفهمه لتلك الآراء، كما أنه المسوّغ الموضوعي للثقة في تقويمه وأحكامه، أما الإستهتار وعدم الدقة والعناية أو التقصير في عرض آراء الخصم فهو أسلوب لا يجدي، لا مع الخصم ولا مع غيره، بل يعود ضرره على الناقد نفسه وأغراضه في النقد، لاتهامه بالكذب أو الجهل.

ولأجل أن يكون النقد موضوعيا ويستحق الثقة ويحقق الغاية منه، فعلى الناقد بذل غاية جهده في تقرير حقائق الموضوع وعرضها بأقصى الإمكان، ثم إظهار ما فيها من خطأ وصواب بغاية البرهان، أما التقصير في ذلك أو العجز فيه، فإنه يكون سببا مباشرا في ترويج ما في موضوع النقد من أخطاء، وانتشار ما فيه من آراء فاسدة.

والغزالي ـ رحمه الله ـ كان له فضل تأسيس هذا المنهج فى عرض آراء الآخرين

---

(٨٣) ص٤ تحقيق أحمد زكي باشا ـ جمعية العروة الوثقى ـ الإسكندرية سنة ١٩١٢م.
(٨٤) معيار العلم/ ١١٧ ـ الغزالي ـ تحقيق سليمان دنيا ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١م.

قبل نقدهم، فحين أراد مثلا هدم الفلسفة فى الغيبيات بدأ ـ كمدخل اعتبره ضروريا لتحقيق أغراضه فى النقد ـ بعرض آرائهم فى كتاب مستقل، سماه «مقاصد الفلاسفة»، تحدى به الفلاسفة أنفسهم في وضوح عرض هذه الآراء ودقتها، بعد ذلك ـ وليس ـ قبله ـ نقد تلك الآراء في كتاب مستقل، سماه «تهافت الفلاسفة» مبينا فساد مذهبهم في كثير مما ذهبوا إليه على أساس من منهجهم ومسلماتهم.

وكان هذا المنهج في النقد هو الضربة القاضية التي لم تقم للفلسفة بعدها قائمة.

يقول دي يور تحت عنوان : «نهاية الفلسفة في المشرق» :
(لم يحاول أحد قبل الغزالي أن يشن على جملة المذاهب الفلسفية التي قامت في المشرق ـ على أساس من الفلسفة اليونانية ـ غارة تستند إلى أصول عامة وتقوم على دراسة عميقة)[٨٥].

بل إنه ليقرر أن الفلسفة نفسها قد أصابها الذبول منذ ذلك التاريخ فيقول :
(لم تستطع الفلسفة أن تحرز لنفسها المكان الأول، ولم يتيسر لها أن تحتفظ بالتقدير الذى كانت تتمتع به من قبل)[٨٦].

وليس هذا إلا بفضل المنهج الذى اتبعه الغزالي في عرض آراء الفلاسفة وتقرير مذاهبهم إلى أقصى الإمكان، ويعلق الدكتور سليمان دنيا، وهو من نقاد الغزالي، يعلق على هذا الأسلوب العلمي فيقول :
(استطعت أن أتبين أن الغزالي في سلوكه مع الفلاسفة لم ينحرف بآرائهم عن وصفها الصحيح، بل إنه على العكس من هذا فقد أضفى إليها إشراقا وصفاء لم يجدها المرء عند ابن سينا)[٨٧].
وهذا الفرق الذى ألمح إليه الدكتور دنيا، تحتمه في رأيي طبيعة الاختلاف بين الناقد والفيلسوف، وهو ما أشرت إليه سابقا، من حيث أن الفيلسوف يتحدث إلى نفسه ويكتب لها في المقام الأول، أما الناقد فهو بحكم تكوينه وغرضه يتوجه في حديثه وكتابته للآخرين.

---

(٨٥) تاريخ الفلسفة في الإسلام/ ٣١٧ ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر.
(٨٦) السابق/ ٣٥٧.
(٨٧) انظر: كتابه الحقيقة في نظر الغزالي ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٥.

وبهذا الاختلاف يتضح معه نتيجة طريقة العرض ووضوحها في النقد، فالأمانة العلمية والوضوح في عرض آراء الآخرين، فوق أنها دليل على خبرة الناقد وهضمه لموضوع النقد، فإنها من الأسباب الجوهرية في تحقيق أهداف النقد وغايته.

ثامناً : بلاغة التعبير :

ويتصل بهذا الذى قلناه في الأمانة والوضوح : أسلوب التعبير في النقد، فالنقد وإن كان تقويما لعمل ما فهو في النهاية يتضمن حكما على هذا العمل بالقبول أو الرفض، بشكل جزئي أو كلي، وذلك الحكم إنما هو في الحقيقة حكم على البعض لحساب البعض وهؤلاء الذين يتوجه النقد لصالحهم أو يقصدهم الناقد بأحكامه تختلف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية والفكرية والعقائدية، وهى أمور يتعين معها تفاوت صيغ تلك الأحكام النقدية، ليس من حيث موضوعيتها، وإنما من حيث أسلوب ومستوى التعبير عنها، وتلك مسألة يتوقف عليها نجاح الناقد في تحقيق أغراضه وقبول أحكام النقد أو رفضها، ولعل هذه المسألة تتضح أهميتها حين تكون تلك الأحكام النقدية أو التقويمية تتعلق بالأمور الأخلاقية والدينية.

والقرآن الكريم قد أرشدنا إلى أعظم المناهج النقدية على الإطلاق في هذا المجال في قوله تعالى:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(٨٨) فالآية تشير إلى مستويات متفاوتة من الناس، لا تخرج أحوال الناس عن تصنيفها، وتضع لكل مستوى أو صنف ما يناسبه من مستوى في لغة الحوار والخطاب، والرسول ﷺ، كداع إلى الحق وناقد، أو رافض لما عليه الناس من أوضاع باطلة، إنما كان نجاحه في دعوته يعود فيما يعود إلى ما امتاز به من لطف في الحديث وملاحظة لمستوى المخاطب، ورأفة ورحمة يشعر معها المدعو بحرصه ﷺ على هدايته إلى ما يصلحه وينفعه، وصدق الله العظيم : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٨٩)، ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾(٩٠).

---

(٨٨) النحل/ ١٢٥.
(٨٩) التوبة/ ١٢٨.
(٩٠) آل عمران/ ١٥٩.

وبعـــــد

فإن غاية ما أرجوه، أن يكون البحث قد انتهى وقد حقق غايته، وتحقق لي ما كنت أقصد إليه من بيان قيمة النقد وأهميته في تحريك الأمة نحو أهدافها، والمستوى العلمي والخلقي الذى يجب أن يتحلى به من يشتغل بصناعة النقد أو التقويم، والتي يمكن ردها إلى أمرين لا يمكن الفصل بينهما ولا يغني أحدهما عن الآخر وهما :

كمال العلم، وكمال الغاية، أو ما عبر عنه أسلافنا العظام بالتحري والورع.

وإذا أردت أن أختم القول في موضوع البحث برده إلى أصوله الأولى، أقول :
إن قيم النقد في الثقافة الإسلامية إنما تشكل مثلثا :
التوحيد قاعدته،
والعلم والمعرفة أحد أضلاعه،
والأخلاق وحرية الإرادة ضلعه الآخر.

المـــراجـــع

القرآن الكريـــم.

صحيـــح مسلـــــم.

٣ ـ **الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية.**
الإمام بن قتيبة ـ تحقيق ـ محمد زاهد الكوثري ـ مطبعة السعادة ١٣٤٩هـ.

٤ ـ **إحياء علوم الدين.**
الإمام الغزالي ـ لجنة نشر الثقافة الإسلامية ـ القاهرة ١٣٥٢هـ.

٥ ـ **الأدب الكبير.**
ابن المقفع ـ جمعية العروة الوثقى ـ الإسكندرية ١٩١٢م.

٦ ـ **الأربعين في أصول الدين.**
الإمام الغزالي ـ مكتبة الجندي ـ القاهرة ١٩٦٥م.

٧ ـ **اسبنوزا.**
فؤاد زكريا ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٢م.

٨ ـ **الإشارات والتنبيهات.**
ابن سينا ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧١م.

٩ ـ **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.**
مصطفى صادق الرافعي ـ المكتبة التجارية الكبرى طـ ٨ القاهرة ١٩٦٥م.

١٠ ـ **الإملاء في إشكالات الإحياء.**
الإمام الغزالي ـ لجنة نشر الثقافة الإسلامية ـ القاهرة ١٣٥٦هـ

١١ ـ **الإنسان ذلك المجهول.**
كاريل ـ مؤسسة المعارف ـ بيروت.

١٢ ـ **الاقتصاد في الاعتقاد.**
الإمام الغزالي ـ مطبعة صبيح ـ القاهرة.

١٣ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم.**
الإمام ابن تيمية ـ دار المعرفة للطباعة والنشر.
١٤ ـ **البحث عن اليقين.**
جون دبوي. دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٦٠م.
١٥ ـ **التأملات في الفلسفة الأولى.**
رينيه ديكارت ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢م.
١٦ ـ **تجديد التفكير الديني في الإسلام.**
محمد إقبال ـ ترجمة عباس محمود ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٨م.
١٧ ـ **تاريخ الفلسفة الغربية.**
برتراند رسل ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧م.
١٨ ـ **تاريخ الفلسفة في الإسلام.**
دي بور. لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٧م.
١٩ ـ **تهافت الفلاسفة.**
الإمام الغزالي ـ دار المعارف طـ٣ القاهرة
٢٠ ـ **الحقيقة في نظر الغزالي.**
سليمان دنيا ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٥م.
٢١ ـ **الحياة الوجدانية.**
محمود حب الله ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٤٨م.
٢٢ ـ **حكمة الغرب.**
برتراندرسل. عالم المعرفة الكويت ١٩٨٣.
٢٣ ـ **حياة الحقائق.**
غوستاف لويون ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٤٩م.
٢٤ ـ **درء تعارض العقل والنقل.**
الإمام ابن تيمية ـ مطبعة دار الكتب ـ القاهرة ١٩٧١م.
٢٥ ـ **دلالة الحائرين.**
موسى بن ميمون القرطبي ـ مطبعة جامعة أنقرة ١٩٧٢م.
٢٦ ـ **سيرة النبي.**
ابن هشام ـ دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨١م.

٢٧ ـ **العقل والدين.**
وليم جيمس ـ عيسى الباب الحلبي ـ القاهرة.
٢٨ ـ الإمام الغزالي ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٤م.
٢٩ ـ **قصة الحضارة.**
وول ديورانت ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر طـ٣ القاهرة ١٩٦٥م.
٣٠ ـ **القصور العوالي.**
للإمام الغزالي ـ مكتبة الجندى ـ القاهرة.
٣١ ـ **القسطاس المستقيم.**
الإمام الغزالي ـ مكتبة الجندى ـ القاهرة.
٣٢ ـ **اللؤلؤ والمرجان.**
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت ١٩٧٧م.
٣٣ ـ **معيار العلم.**
الإمام الغزالي ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦١م.
٣٤ـ **مقال على المنهج.**
رينيه ديكارت ـ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر طـ٢ القاهرة ـ ١٩٦٨م.
٣٥ ـ **المنهج الجدلي عند هيجل.**
إمام عبد الفتاح إمام ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩م.
٣٦ ـ **مقاصد الفلاسفة.**
الإمام الغزالي ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦١م.
٣٧ ـ **مقدمة ابن خلدون.**
ابن خلدون ـ لجنة البيان العربي ـ القاهرة ١٩٦٥م.
٣٨ ـ **منهج السلف في العقيدة.**
حمدي عبد العال ـ دار القلم طـ٢ الكويت ١٩٨٦م.
٣٩ ـ **المنقذ من الضلال.**
الإمام الغزالي ـ مكتبة الأنجلو المصرية طـ٢ القاهرة ١٩٥٥م.
٤٠ ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.**
أبو الحسن على الندوي ـ دار الأنصار طـ١٠ القاهرة، ١٩٧٧م.

٤١ ـ ميزان العمل.
الإمام الغزالي ـ مكتبة الجندى ـ القاهرة.
٤٢ ـ محاورات رينان.
رينان ـ دار العصور للطبع والنشر ١٩٢٩م.
٤٣ ـ نظرية المعرفة والموقف الطبيعي.
فؤاد زكريا ـ دار النهضة ـ القاهرة ١٩٦٢م.
٤٤ ـ نقد العقل المجرد.
عمانويل كانت ـ ترجمة أحمد الشيبانى ـ دار اليقظة العربية بيروت ١٩٦٥م.